

الإثنين 22-07-2009

691- الفصل الأول: لعبة الكلام: الحالة الثانية (2 من 2)

دراسة في علم السيكوباتولوجي (الكتاب الثاني)

الحلقة ١٥



لوحات تشكيلية من العلاج النفسي  
شرح على المتن: ديوان أغوار النفس



أنا قالع ملط، لكن مش عريان!

طَيَّب...! طَيَّب!، واحدة واحدة.

أنا حاقلَع أهة:

أدى صورتى يا سيدى: شَرْمَطْنَهَا،

وادی قَصَّة حَبْ،

وادی عقدة نقص، وكسرة قلب.

أهو كلّه كلام

### مستويات الوعي بين التفريغ والتعليل

قلنا من البداية أن العلاج النفسي ليس هو العلاج بالكلام، وإن كان الكلام من أهم وسائله. في هذه النشرة اليوم سوف نتناول تقييم مستوى ومحتوى الكلام، وخاصة ما شاع عن العلاج النفسي، بل وبالذات عن التحليل النفسي. هذه الإشكالية شارك في إثارتها ما شاع عن التحليل النفسي بوجه خاص، وهي تتعلق باختزال العلاج النفسي إلى:

(1) الترييح

(2) التفريغ

(3) التركيز على البحث عن السبب وخصوصا في الطفولة،

وقد تناولنا هذه النقط الثلاثة بالنقد التفصيلي في مواقع أخرى (أقربها حين رفضنا حكاية "إذا عرف السبب بطل العجب"، حتى وصل النقد إلى الزعم بأنه "إذا عرف السبب زاد العجب")،

المتن هنا هو على لسان مريض بلغت بصيرته الناقدة عمقا قاسيا وهو يعلنها هكذا :

• إن هناك احتمالا أن كل (أو أغلب) ما يحكيه المريض ليس إلا القشرة الظاهرة لما يعده أو يعاناه أو يتذكره،

• وأن هذا المريض (الذي يأتي المتن على لسانه) هو المريض الساخر الكاشف المخترق - مثل كثير من المرضى - قد يحب، بإرادة ما، ليست بالضرورة واعية، حقيقة داخل داخله،

• وأنه "بصراحة" ، في مستوى ما من وجوده، لا يستأمن طبيبه عليها، (هذا إذا وصل هو إلى معرفتها أصلا).

معنى ذلك أن الكلام الظاهر قد يكون أبعد ما يكون :

○ عن الكلام الكامن،

○ ثم عن التركيب الغائر،

○ ثم عن الحقيقة.

وسواء كان المريض يعرف أنه لا يكشف عن "كل طبقات ذاته"، أولا يعرف، فإنه في كثير من الأحيان، يكون كل (أو أغلب) ما يحكيه ليس إلا

تصوره عن أسباب مرضه،

أو العوامل الظاهرة التي أدت لظهوره،

أو التي هيأت لظهوره،

على الطبيب إذن ألا يستدرج للاستلام لهذه القشرة الكلامية، التي تكون في كثير من الأحيان **تبريرية** أكثر منها **تعليقية**،

فقد يثبت أنه ليس المهم هو أن المريض حرم من الخنان أو أنكر الاعتراف بوجوده في طفولته، بقدر ما هو مهم النظر في التركيب الذي ألت إليه مجموع ذواته ومستويات وعيه، وهى ما يمثلها هذا الكيان الإنسانى الفرد المائل "الآن" للعلاج،

هذا التركيب الخالى هو الذى يحتاج إلى إعادة تشكيل، فضلا عن أنه المتاح لذلك،

أما سبب المرض، (خصوصا أن أغلب الأسباب قد حدثت في الماضى اللهم إلا الاضطرابات التفاعلية والموقفية الصرفة)، فهو جزء من الماضى غالبا، وبما أننا لا نستطيع عادة تعديل الماضى، وكل ما نملك إزاءه هو **تذكره**، أو **تذكر بعضه**، أو حتى **تذكر ما أخفاه عنا دونه** (أخفى الماضى بظاهر ما يقال كما يشير النص):

أدى صورتى يا سيدى،...، شَرُّ مَطْطُها،  
وإدى قصّة حبّ، وعقدة نقص، وكسرة قلب.

لا بد - إذن- من تحجيم هذه الشائعة البالغة الشهرة، الجسيمة الخطأ فالإضرار التى تقول: إن العلاج هو "كلام وتفريغ"

::::::::::

واضح من سخرية بصيرة المريض (المتن) أن تركيز الطبيب (المعالج) على محتوى ما يقوله المريض، وظاهر ما يحكى، إنما يبعد الطبيب عن صلب القضية

المريض هنا يقولها تنبيها ساخرا: "أهو كله كلام !!"

ثم هو يُلحق ذلك فوراً بإيجاز رأيه، وإعلان أن مثل هذا الطبيب الذى استدرج إلى هذه المنطقة التبريرية التفسيرية التعليقة، هو أبعد ما يكون عن حقيقة أعماق مريضه وطبيعة تشكيله:

عودة إلى المتن:

أنا قانع مَلَط،

لكنى مش عريان.

هوا أنا مهبول؟

أديك نفسى لحمه طرية؟

على إيه؟

لو أننا تعمقنا الموقف كما تدعونا بصيرة هذا المريض الساخرة هكذا، إذن لرأينا أن التفاصيل السطحية التي قد تملأ جلسات التحليل النفسى ليست إلا مظاهر جزئية لمشكلة الوجود الأعمق، فقد تكون إعلانا للوحدة القاسية البشعة التي اكتشفها المريض بلا حل، وعلى لسان هذا الجزء تصبح صورة المريض التي في متناول العلاج ليست هي حقيقته وإنما غطاؤه،

المريض هنا هو الذى يتفرج - من داخل داخله - على العلاج وهو يحاول أن يفسر ويؤول، أو حتى وهو (العلاج) يحاول أن يعيد تشكيل تركيب مريضه وذاته، من هذه المعلومات المتاحة بلا عمق أو جدوى، (لأنها ليست هي)

الطبيب على هذا المستوى السطحي لا يستطيع أن يمارس التشكيل النقي العلاجي الذى يمكنه من أن يصيغ منه "الفرض" الأصح.

هذا الموقف الساخر يعرفه بعض الذهانيين خاصة سواء المرضى منهم أم ذوى الرؤية الذهانية بعد أو قبيل المرض، وهم أحيانا يمارسونه بوعى جزئى على الأقل، ومن موقف السخرية هذا قد تطفو قصص الشعور بالذنب، وعقد النقص والفشل في الحب.... إلخ

المتن ينيهنا إلى أن كثيرا من هذه الحكاوى قد لا تكون إلا مجرد تفريغ كلامى، قد يخفف الضغط عن الجزء الأعلى من الشخصية ولكنه لا يغيوس إلى جوهر مشكلة الوجود.

### تحذير من التعميم

لا يمكن تعميم هذا الموقف بلا تمييز، إذ عادة ما ينشأ هذا الموقف ويمتد حين يشك المريض في قدرة العلاج على استيعابه، أو في جدية العلاج في مواكبته، أو حين يستشعر المريض انفصال العلاج على مسافة منه، إلى موقف أشبه بالفرجة، أو حتى الشفقة، دون مشاركة فعلية أو مواجهة.

أحيانا في موقف التعليم، يكون سؤال الطبيب الكبير (الأستاذ مثلا) للمريض "بتحس بإيه"، هو بغرض الشرح في موقف التدريب، حتى يعلّم المتدرب كيف يسمى مثل هذه المشاعر باسم عرض معين، أو لكي يصل في النهاية إلى اسم مرض معين، فيكتمل الدرس،

قد يلتقط المريض هذا الموقف بجدسه، أو بذكائه، أو بكليهما فيصبح الموقف أكثر إيلاما له، وينطلق حكمه على ما يجرى أكثر سخرية وقسوة كما سيأتى في المتن حالا:

تأ ثم إنه كثيرا ما يصعب على المريض أن يصف ما يشعر به (بحس به)،

تأ أو قد يكون ما يعيشه ويعايشه من مشاعر ووجدان أكثر إيلاما وعمقا من أن يُعلن أصلا،

تأ وأحيانا يكون المريض أكثر استهانة بجدوى أن يقول  
لمعالج بهذا البعد حقيقة ما يحس به

تبينت أبعاد هذا الموقف وكيف يصل إلى المرضى من خلال حماس  
زملائى المبتدئين المتدربين معى أثناء العلاج الجمعى خاصة  
وأورد بعض ذلك فيما يلى:

يدعو أحد المتدربين المريض فى موقف معين أن "يحس" بمشاعر  
معينة" (الخوف مثلا) بدلا من أن يحكى عنها، أو أن "يشعر  
بالتعاطف" مع زميل آخر يكون قد تعرى أوتألم أو أعلن ضعفه  
أو احتياجه فى بعض مقاطع التفاعل فى المجموعة، كنت ساعتها  
انظر للزميل المتدرب وهو يصر على أن المريض إن لم يكشف عن  
مشاعره لخطتها بدرجة مناسبة، أو إن لم يشارك زميله بالعمق  
الكافى، فهو "لا يحس"، لدرجة اتهامه أحيانا بالبلادة، كنت  
أنظر إليه بما معناه "وأنت، هل لاحظت تعاطفك؟ مع من؟ وإلى  
أى درجة؟ وكيف يمكنك أن تظهره"، وقد يتمادى المتدرب (أو  
المعالج المنفصل) فى تحفيز المريض "أن يحس" بالجارى، أو بما به،  
ضاربا بنفسه - دون بصيرة كافية- القدوة، فقد يقول للمريض  
بشكل مباشر أو غير مباشر: "حس زى ما أنا باحس"،

وهنا يحضرنى مثل مصرى عامى مهم يقول على لسان من  
يُجلد عددا معينة من الجللات "إلى بينجلد غير اللى  
بيعد"،

ومثل آخر أقل انطباقا لكنه أكثر شيوعا يقول "إلى  
إيده فى المية غير اللى إيده فى النار"،

وأغنية أقل فأقل وهى التى تقول "عوام ياللى على شط  
الهوا عوام"،

كل ذلك يشير إلى إحاطة الوعى الشعبى بحقيقة أن النصح،  
والغرز، والتوجيه لمن لا يعيش التجربة بحقيقة أبعادها، أى  
لمن يرصدها من على مسافة، هو بلا جدوى من ناحية، وأيضا  
هو يشعر المريض ببعد المعالج عنه من ناحية أخرى.

أحيانا يطلب الطبيب الأصغر من المريض أن يوقظ إحساسه  
ليخترق اللامبالاة التى تورط فيها هربا من آلامه، والمتدرب  
لايدرى حجم عبء ما يطلبه من المريض ولا خطورته فكأنه يطلب  
تفجير ذرة كامنة وقد أحيطت بجدار اللامبالاة الواقى،

هذا ليس اتهاما للمعالج الأصغر بل هو تنبيه ضمنى على  
مسار التدريب. وهو تنبيه مهم حتى لا يتصور المعالج المبتدئ،  
والمعالج عموما، أنه هو صاحب الإحساس الحى النقى، وأن المريض  
هو وحده فاقد الإحساس وأن عليه (على المريض) أن يتشبه به  
ويتفاعله حتى يكون سويا حاضرا.

فستان بين إحساس إنسان اختبأت مشاعره رعبا،

وبين إحساس شاب فى أول طريقه وهو يكتشف طبقات مشاعره مع  
اكتشاف طبقات وعيه تدريجيا دون تهديد بالتفسخ أو المواجهة.

المتن هنا ينبهنا إلى أن مثل هذا المريض، خاصة إذا كان ذهاني بصيرى، يعلمنا ساخرا أن المريض لن يكشف داخله إلا لمن يثق فيه بالقدر الذى يسمح له بمثل هذا الكشف، أو أقل.

#### الخلاصة :

كل هذا يشير في نهاية النهاية، وبرغم قسوة سخريه المتن،  
 v أن الثقة بين مثل هذا المريض وبين الطبيب أو المعالج،  
 هى المعبر الوحيد الذى يسمح بالتواصل فالكشف  
 v وأن وراء كل ظاهر ما هو أهم وأعمق  
 v وألا نقيس مشاعر مرضانا بمشاعرنا، أو بتصورنا عن  
 مشاعرنا

#### بقية المتن حتى النهاية

(2)

أنا قالع ملط،  
 لكنى مش عريان.  
 هؤا انا مهبول؟  
 أديك نفسى لمة طرية؟  
 على إيه؟ !!!  
 الناس الشرفا فى الغابة أنبل منكم.  
 ياكلوها علناً بشجاعة من غير تبرير.  
 ولا ييجى واحد منهم بيه،  
 يسأل بالعلم المتمكن: بيثجس بإيه؟  
 ويقلب سيخى،  
 ويقول لى جس:  
 بالنار من تحتك.  
 كما إنى باجس:  
 مجلاوة رجيتك.  
 الحالة دى صعبة ومهمة،  
 تنفع للدرس.

تعبير "الحالة دى تنفع للدرس" هو تعبير مؤلم متواتر فى المؤسسات التعليمية، وبرغم أنه حقيقة مقبولة ومشروعة (نشرة أمس)، إلا أن وصوله للمريض بهذه الصورة الفجة، ولو بطريق غير مباشر، هو الذى مثله المتن وقد صاح فينا هذا المريض الساخر،

أن آلامه ليس كمثلها ألم،  
وأنه كمن ينشوى بنارها،  
ونحن الذين ندرس أو ندرّس، لا تصلنا إلا كمن يشم العابر  
رائحة الشواء تتصاعد مما تقلبه النار !!  
أظن أنه لو صار هذا البيت المرعب بين الناس مثلا عاميا  
جديدا لانتبهنا أكثر، وراعينا أكثر  
مرة أخرى:  
ويقول لي حس، بالنار من تحتك،  
كما إنى باحس مجلاوة رجحتك"

**أرسل تعليقا**

TheManAndEvolution-FORUM@arabpsynet.com  
[http://www.rakhawy.org/a\\_site/everyday/sendcomment/index.html](http://www.rakhawy.org/a_site/everyday/sendcomment/index.html)  
The Man & Evolution FORUM Web Site  
[http://fr.groups.yahoo.com/group/TheManAndEvolutionForum /](http://fr.groups.yahoo.com/group/TheManAndEvolutionForum/)  
All Interventions: The Man & Evolution FORUM Messages  
<http://fr.groups.yahoo.com/group/TheManAndEvolutionForum/messages/1>  
Pr. Yahia Rakhawy Web Site  
[http://www.rakhawy.org/a\\_site](http://www.rakhawy.org/a_site)